# التعريف والنقد

## هنري برغسون : « التطور المبدع »

**ـ ترجمة الدكتور جميل صليبا ـ**

المطبعة الشرقية بيروت ـ ١٩٨١

**الدكتور محمد كامل عياد**

كانت اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع الانسانية ( اللجنة الدولية سابقاً ) ، المتفرعة عن منظمة ( الاونسكو ) قد كلفت زميلنا الدكتور جميل صليبا بترجمة كتاب « التطور المبدع » للفيلسوف الفرنسي المشهور ( هنري برغسون ) . بعد أن ترجم كتاب « مقالة الطريقة » لديكارت الذي سبق أن نشرته هذه اللجنة سنة ١٩٥٣ ضمن مجموعة ( الروائع ) .

وقد أتم الدكتور جميل صليبا ترجمة « التطور المبدع » وسلمه الى اللجنة في العام ١٩٧٢ ولكن الظروف المضطربة في لبنان أدت الى تأخير طبع الكتاب ، فسنحت الفرصة للمترجم أن يعيد النظر في عمله قبل بضعة أشهر من وفاته في تشرين الأول سنة ١٩٧٦ وبذلك استطاع أن يزداد اتقاناً في ضبط المعنى وسلامة الأداء .

ليس من حاجة الى التنويه بمآثر المرحوم الدكتور جميل صليبا والإشادة بنشاطه وأعماله في عالم الفكر والبحث ومختلف ميادين التربية والتعليم والتأليف والنشر لاسيما في موضوع تخصصه بالفلسفة العامة والفلسفة العربية ـ الاسلامية . فإن مؤلفاته الكثيرة مثل كتب ( علم النفس ) و ( المنطق ) و ( الدراسات الفلسفية ) و ( من افلاطون الى ابن



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سينا ) و ( تاريخ الفلسفة العربية ) كلها تشهد على سعة اطلاعه وتعمقه في هذه الموضوعات ، ثم على مقدرته في نقل المعارف والآراء والنظريات الحديثة من اللغات الاوروبية الى اللغة العربية وعرضها باسلوب واضح وكلمات سهلة مع المحافظة على صحة المعنى والأناقة في المبنى . وقد أثبت الدكتور جميل صليبا في كتابه الكبير ( المعجم الفلسفي ) معرفته الدقيقة للمصطلحات الفلسفية ومهارته في تمييز مدلولاتها والمقارنة والتقريب بين التعابير الحديثة والتعابير العربية القديمة .

ان هذا كله يتجلى أيضاً في ترجمته لكتاب ( برغسون ) عن ( التطور المبدع ) ، الأمر الذي دفع اللجنة اللبنانية الى الإعراب عن اطمئنانها الى بلوغ هذه الترجمة درجة الكمال .

ولا بد هنا من الاشارة الى أن فلسفة ( برغسون ) [ ١٨٥٩ ـ ١٩٤١ ] قد احتلت مكانة مرموقة في تاريخ الفلسفة الغربية الحديثة منذ مطلع القرن العشرين . ولاشك في أن كتاب ( التطور المبدع ) الذي نشره في العام ( ١٩٠٧ ) قد أثار اهتماماً كبيراً لم يقتصر على المتخصصين بالفلسفة ، بل شمل جمهور المثقفين ، وأحدث أثراً بليغاً لدى الكثيرين من رجال الفكر ، وسرعان ما ترجم الى مختلف اللغات فنال صاحبه شهرة واسعة وأخذ طلاب المعرفة يتزاحمون على الاستماع الى محاضراته في المعهد الفرنسي ( كوليج دو فرانس ) التي كان يحضرها أيضاً الكثيرات من سيدات المجتمع . ومن الشواهد على مدى تأثير ( برغسون ) في سائر أنحاء العالم اذ ذاك الرسالةُ المفتوحةُ التي بعث بها اليه في سنة ( ١٩١٧ ) الفيلسوف الياباني ( كانيدو ) ، عميد كلية الآداب في جامعة ( فازدا ) يصف فيها حماسة الطلاب لدراسة فلسفته قائلاً ان شبان الشرق الأقصى يستمعون بشغف الى الموسيقى السحرية ، العميقة المنبثقة من ( باريس )

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهم يسعون الى اجتلاء مبادىء السلوك في فلسفة معلمهم ( برغسون ) .

وقد ظل ( برغسون ) مدة طويلة يهيء الأسباب لتكوين نظريته في الاخلاق فلم يستطع الانتهاء منها الا في سنة ( ١٩٣٢ ) اذ نشر كتابه ( منبعا الاخلاق والدين ) الذي نال شهرة كبيرة . وبذلك تكاملت فلسفة ( برغسون ) التي كان بدأ بوضع أسسها في مؤلفاته المتتالية مثل : ( رسالة في معطيات الشعور المباشرة ) سنة ( ١٨٨٩ ) وكتاب ( المادة والذاكرة ) سنة ( ١٨٩٧ ) ثم كتاب ( التطور المبدع ) ، فكتاب ( الطاقة الروحية ) ( ١٩١٩ ) .

ومما يسترعي النظر العناية الكبيرة التي حظيت بها فلسفة ( برغسون ) في الوطن العربي خلال الثلاثينيات والاربعينيات . فقد انبهر الطلاب العرب الذي درسوا في فرنسا بآراء هذا الفيلسوف الذي بلغ اذ ذاك أوج الشهرة بعد أن نال في سنة ١٩٢٧ جائزة ( نوبل ) في الآداب . وبسرعة ترجمت مؤلفاته كلها الى اللغة العربية وقام الاستاذ بديع الكسم بتلخيص كتاب ( التطور الخالق ) فنشره مع تقديم له ثم ظهرت ترجمته الكاملة للأستاذ ( محمود قاسم ) ـ القاهرة ١٩٦١ ـ .

ان هذا الكتاب الذي نقله الدكتور جميل صليبا مجدداً بعنوان ( التطور المبدع ) جدير بأن يصنف ضمن مجموعة ( الروائع الانسانية ) التي تعمل منظمة ( الاونسكو ) على نشرها بين كل الشعوب . فهو يمتاز بأسلوب في غاية الجمال ينم عن عبقرية فنية، ويسحر القارىء بتعابيره المبتكرة وتشبيهاته البديعة وتصاويره الخلابة واستعاراته الطريفة .

لقد تطرق ( برغسون ) في كتابه هذا الى مسائل علمية وفلسفية هامة وجاء بآراء ومبادىء جديدة تدل على عمق التفكير ودقة التحليل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مثل مباحثه في الذاكرة وعلاقة العقل بالعمل ومفهوم الزمان والمكان و( الديمومة ) وطبيعة الغريزة والحدس . والباحثون يعترفون له بالسبق في انتقاد النظريات الفلسفية التي كانت سائدة في أواخر القرن التاسع عشر وبالكشف ، على الاخص ، عن الصعاب والنقائص في فلسفة ( كانط ) وأتباعه ثم في نظرية ( هربرت سبنسر ) التطورية .

يعتبر ( برغسون ) بحق أبرز ممثل للتيارات الفكرية التي ظهرت في أوائل القرن العشرين والتي كانت تعارض المذاهب المادية المستندة الى العلوم الوضعية من رياضيات وكيمياء وفيزياء وميكانيك وأحياء . فإن هذه العلوم التي ازدهرت في القرن التاسع عشر ، لم تكن تستهدف سوى التقدم الصناعي . وقد اقتصرت على دراسة طبيعة المادة واكتشاف العلاقات بين الموجودات وتحليل عناصرها وتركيبها ومعرفة القوانين الكلية التي تربط بعضها بالآخر . الا انها عجزت عن النفوذ الى حقيقة الكون وجوهر الأشياء فوقفت عند تفسير ظواهر الطبيعة ونشأة الكائنات الحية ونموها تفسيراً آلياً بالاستناد الى مبادىء السببية والحتمية المادية .

وقد اعترف ( كانط ) وأتباعه ( الانتقاديون ) بعجز المنطق والمحاكمة العقلية و العلوم عن حل المسائل الفلسفية الكبرى مثل خلود الروح وحرية الارادة ووجود الله ، كما ان نظرية ( سبنسر ) التطورية التي أعجب بها ( برغسون ) في أول نشأته قد أخفقت أيضاً في الكشف عن منشأ الحياة وسر وجودها ونموها وفي النفوذ الى الحقيقة الكامنة وراء الأشياء فلم تجد بداً من القول بأنه لاسبيل الى معرفة ( المجهول ) الا عن طريق العقيدة الدينية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان ( برغسون ) أيضاً قد سعى ، جرياً مع التيارات السائدة في عصره ، الى التوفيق بين الدين والفلسفة وحاول أن يمهد السبيل الى العقيدة الدينية بتحديد نطاق المعرفة العقلية وبالرجوع الى العاطفة والحدس .

انطلق ( برغسون ) من ( معطيات الشعور المباشرة ) فلاحظ ان هناك اختلافاً كبيراً بين مفهوم الزمن المجرد كما يتصوره العقل كجزء من المكان ، وبين الشعور الباطني بالزمن الراهن الذي نسميه ( الديمومة ) والذي لايمكن قياسه كمياً . ألا نجتاز أحياناً حالات من السأم والملل تبدو كأنها دهر طويل في حين تمر بنا ساعات العمل أو السعادة كأنها لحظة خاطفة ؟

وقد ذهب ( برغسون ) الى أن العقل ، بطبيعته ، اداة تحليل وتركيب وأن وظيفته الأساسية هي السيطرة على المادة واستخدامها و (صنع الآلة ) وبذلك كان له فضل كبير في تقدم الحضارة . ولكن هذا العقل يقتصر ، في رأي ( برغسون ) على كشف الظاهر دون الباطن . ويدعي ( برغسون ) ان الباطن عبارة عن ( ديمومة ) داخلية تختلف عن الزمن العلمي ـ الميكانيكي . وهو يصف هذه الديمومة بأنها انبجاس باطني متدفق وسائل ينساب في شعور كل فرد دون انقطاع . ثم يقول : « الحياة حركة دائمة وتحول مستمر وجريان لاينقطع . إن المحاكمة العقلية تعجز عن النفوذ الى ما وراء هذه الحركة ، إنما نستطيع الشعور بتيار الحياة واندفاعها وتطورها المبدع عن طريق ( الحدس ) . »

هذا الحدس الذي ترتكز عليه فلسفة برغسون في مجملها قوة غريزية . إنه ادراك مباشر ، شامل يتناول الحركة الدائمة في مجرى الحياة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وينفذ الى أعماق كيان الانسان وبذلك يتجاوز مجال الفهم المجرد ويتعدى الطريقة الآلية في تفسير تراكم الذكريات . ويدعي ( برغسون ) اننا بالحدس وحده ندرك وثبة الحياة وديمومتها واندفاعها المبدع .

إن الباحثين الذين تعرضوا الى فلسفة ( برغسون ) وأشادوا بمزاياها وأهميتها وتأثيرها قد لاحظوا أيضاً مبالغتها في تقويم ( الحدس ) واعتباره قوة متميزة ، قادرة وحدها على استيعاب حركة الحياة واندفاعها . ويشير هؤلاء النقاد الى أن الغريزة والحدس والذكاء والعقل والمعرفة كلها حلقات في تطور الشعور تتفق في الجوهر وإنما تختلف في الدرجة . وليس هناك من دليل يجعلنا نرفع ( الحدس ) فوق العقل . وفي كل الأحوال فإن الحكم الأخير يعود الى العقل . ألا نرى ( برغسون ) نفسه يعرف ( الحدس ) بأنه ( غريزة تستضيء بنور العقل ) وأنه ( رؤية مباشرة للفكر بالفكر . ) ؟

**محمد كامل عياد**

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net